تكريماً لأدونيس

د. منير بشور

قبل خمسين عاماً تماماً كتبت مقالاً بعنوان: " السمفونية في شعر أدونيس"، نشر في مجلة كانت تصدر هنا في بيروت بعنوان "المجلة". ظهر المقال في مثل هذا الشهر، في أيار من العام ١٩٥٦، أي منذ نصف قرن من الزمان تماماً. لم أكن قد إلتقيت أدونيس قبل أن أكتب المقال، ولا عرفته شخصيّاً، لكنّ قصيدة ظهرت له آنذاك بعنوان "الفراغ" أثارتني، ودفعتني إلى الكتابة. بعدها جاء أدونيس إلى بيروت، واستقرّ في غرفة صغيرة موصولةٍ بدرج خارجيّ لبناء يقع خلف شارع "بلسّ"، في إنحداره نحو البحر. ذهبت إليه بلا موعد، فوجدته في فراشه. ذكرت له إسمي، فرحّب بي وجلست. بقيت عنده حوالي العشرين دقيقة، أعتقد أن عدد الكلمات التي تبادلناها أثناءها لم يزد عن العشرين بكثير. لم يسألني عن المقال الذي كتبت، و لم أسأله أنا عن أيّ شيء، سوى ما تقتضيه اللياقات.

كان ذلك لقاؤنا الأول، اما الثاني فكان بعد هذا اللقاء الأول بساعتين او ثلاث، إذ انني، بعد اللقاء الأول، ذهبت إلى حيث كنت أسكن، وكتبت قصة قصيرة في بضع صفحات، ثم عدت إليه لأقرأها له، فوجدته كأنما يتوقع عودتي. ورحّب بي بابتسامة عريضة، أضاءت عينيه، وهو يستمع إليّ أقرأ قصتي. وبعد أن انتهيت، فاجأني بأن قال انه هو يضاً كتب قصيدة في غيابي، وقرأها لي. كانت قصيدة قصيرة، في بضع أبياتٍ، أحسب انها قصيدة نثر، نشرت فيما بعد في إحدى مجموعاته.

كان ذلك منذ نصف قرنٍ تقريباً، كما قلت.

ومنذ أيام، عندما طلب مني الصديق ماهر جرّار أن أساهم في هذه الندوة ببضع كلمات تكريماً لأدونيس، شعرت كما يشعر ولد صغير قُبض عليه ويده في علبة من الحلوى ممنوعة عليه. فأنا قد غادرت عالم الشعر والشعراء منذ زمان طويل، لكن محبتهم ما تزال تسكنني كسرّ دفين. وكان عليّ أن أعود إلى أوراقي القديمة، وإلى قصاصات كنت أقتطعها من المجلات والصحف بين الحين والآخر، وإلى بعض كتب الشعر التي احتفظت بها، على أمل أن أقرأها في يوم من الأيام. ومن بين هذه الكتب كتاب أدونيس المدهش: "الكتاب"، في أجزائه الثلاثة. وهكذا صرفت ما أُتيح لي من الوقت، خلال الأسبوعين الأخيرين، أقرأ أدونيس، وأقرأ عنه، وأُدير الأفكار في رأسي، حول ما يمكنني أن أقوله عنه، تكريماً له، في هذه الدقائق القليلة.

لا أعرف كيف يكرم إنسانٌ إنساناً آخر، بغير الحب والجهد في الدخول إلى ثنايا الروح، سعياً إلى التلاقي والتآخي. وإذ أغتنم هذه المناسبة لأفعل ذلك، أنقل إليكم ما أعتقد أنه قد حصل من تحوّلات في الروح الشعريّة لأدونيس، خلال الخمسين سنة الأخيرة:

إذا صحّت قرائتي لقصيدة "الفراغ" بأنها كانت ذا طابعٍ سيمفونيّ، أو أنها قصيدة سيمفونيّة، فإن شعر أدونيس الجديد، بالمقابل، وخصوصاً في "الكتاب"، هو أقرب إلى البوليفوني. والبوليفوني على أنواع، والنوع الأقوى الذي أسمعه، عندما أقرأ في "الكتاب"، هو الذي يمزج بين أصوات الآلات الموسيقيّة، وأصوات البشر، والذي جسّدته وكرّسته فنون الأوبرا، على وجه الخصوص. تأتي هذه الأصوات من جهات مختلفة، وعبر قنواتَ متعددة، وعلى طبقات وإيقاعات مختلفة، بحيث أن التكامل أو التوحّد الذي ينشأ بينها، لا ينشأ بفعل التناغم والتآلف، كما في السيمفوني، بل بفعل التفرّد، والتضادّ، والاختراق، والمفاجأة. وهو تفرّد وتضادّ واختراق مدهش في "الكتاب"، يستنفر الأعماقَ ويهزّها، كما تستنفرها مقاطع الأوبرا وتهزّها، حتى عندما يستمع المرء إليها بلغة أجنبية ولا يفهم معنى كلماتها.

والبوليفوني في "الكتاب" يتعدّى الصوت، ليشمل الشكل، والخطوط، فتتفرّد الكلمات موقعاً وتوزيعاً، وتتنافر، بدءاً من الغلاف: أمسِ / المكانُ / الآنَ (كسرة/ ضمّة / فتحة)، وفي المتن، حيث تتوزّع في صناديقَ وهوامشَ على صفحاته: في الأعلى، وإلى الأيمن، والأيسر. ويبدو وكأن الصفحات مسارح تتوزّع الكلمات عليها، فتصل الى الأذن من مواقع وجهات مختلفة، كما يحدث في مسرح الأوبرا، ويزدحم بعض الصفحات بالكلمات، بينما تندر الكلمات في بعضها الآخر، فتشارك العينُ الأذنَ والروحَ في حركة النبض والإيقاع.

أما في المعنى، فالتضادّ أعمق غوراً وأبعد مدى، إذ تأتي الكلمات لتفرض المعنى أحياناً، أو تثيره، أو تستسقيه، لا بما تقوله فقط، وإنما بما لا تقوله، وبالطريقة التي تقوله بها. عوالمُ من الكلمات تتحرّك في جسد الكتاب، بوعي وبلا وعي، تستجلب الأمس-- التاريخ، من غياهب الزمن وتضعه في حضرة المكان، موثوق اليدين، كأنما تبغي إعادة صياغته، او كتابته من جديد. كمخرجٍ سينمائيّ يستعيد شريط الأمس ليعيد صياغته من جديد: الأمسِ/ المكانُ/ الآنَ.

انتبهوا: ليس للمستقبل على هذا السراط موضعٌ ، بين الأمسِ والآنَ ، ذلك أن هذا الموضع محتلٌّ أو مشغول بالمكان.

في قصيدة "الفراغ"، منذ خمسين سنة، كما في كلّ شعره آنذاك، كان أدونيس قارئاً. كان يقرأ "المكان" كصناعة للمستقبل. كان طافحاً بالأمل، باليقين، منشداً نشيد الثورة التي ستأتي بالغد المشرق. وكان يفعل ذلك لأنه كان يقرأ في كتاب كتَبَه سواه. في الخمسين سنة الأخيرة تحوّل القارىء إلى كاتب ، وتحوّل الكاتب إلى كتاب.

فعل الكتابة—الخلق، بالكلمات. وإن لم يكن خلق العالم ممكناً في فسحة " المكان"، فليكن ذلك في فسحة الكلمات. وبعدما ينتهي الشاعر من عمله يقف حائراً.

يقول أدونيس، في مقابلة له مع الياس خوري في ملحق "النهار" عام ١٩٩٦: "كلّ قصيدة أكتبها، حتى "الكتاب"، أشعر حين أعيد قراءتها بأنني لست من كتبها، لأنها لم تكملني، ولم تملأ الفراغ. أعيش وأكتب وأنا أشعر بملء كياني أنني باستمرار أنا لا أنا."

ويعيد أدونيس القول نفسه تقريباً عام ٢٠٠٥، بمناسبة صدور الترجمة الإسبانيّة لِ"الكتاب"، فيقول: "بعد مرور فترة طويلة على صدور جزئه الأول نشأت بيني وبينه مسافة تتيح لي أن أنظر إليه من خارج...بصفتي قارئاً. ولا أتردد في القول انني أصاب، أنا من كتبه، بشيء من الحيرة: كيف أدخل إلى "الكتاب"؟ كيف أقرأه؟"

هل أصبح "الكتاب" قميص الشاعر، أم أصبح الشاعر قميصه؟

"الشعر لا يعبّر عنّي، بل يملأ فراغاتي"، يقول أدونيس في موضع آخر. بعد خمسين سنة يعود أدونيس إلى الفراغ، ليملأه بالشعر، بالكتابة.

تحيةً إلى أدونيس، الكتاب.